د/ محمد مهداوي

أستاذ الأدب العربي القديم

بجامعة تلمسان – الجزائر-

عنوان المداخلة : أهمية اللغة في تحديد الشخصية الوطنية وتوحيد الفكر– جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنموذجا

ملخص المداخلة :لقد واجه الكتاب والأدباء والشعراء الجزائريون مشكلة التعبير عن أفكارهم ومعاناتهم ،وعن أحاسيسهم ومشاعرهم أيام الاحتلال الفرنسي للجزائر .هذا الاحتلال الذي سعى جاهدا منذ البداية إلى القضاء على الشخصية الوطنية ، من خلال القضاء على اللغة الوطنية (اللغة العربية) ،إدراكا منه لأميتها في صنع شخصية الإنسان وهويته ،فأبعدها من التداول داخل المجتمع الجزائري – من الإدارة ومن التعليم الرسمي –،وذلك من أجل قطع الصلة بين الشعب الجزائري والأمة العربية من جهة ، وفصله عن تاريخه وتراثه الثقافي والفكري من جهة أخرى ، ليصبح بعد ذلك شعبا هجينا بلا ثقافة ولا تاريخ ،يسهل تذويبه وابتلاعه وضمه أرضا وشعبا إلى فرنسا.

لجأ الكتاب إلى اتخاذ اللغة الفرنسية – لغة المحتل – أداة للتعبير ، ووسيلة للتواصل مع الآخر ،لكن ذلك أدى إلى حدوث صراع فكري وانفصام في الشخصية لدى هؤلاء الكتاب ،نتيجة الازدواجية بين التفكير العربي والتعبير الفرنسي ،يقول الفيلسوف الألماني فيخته في هذا السياق :"إن كل تربية صحيحة سليمة لا يمكن أن تقوم إلا على أساس اللغة القومية الأصلية، التي هي القوة الطبيعية الأولى للأمة..." وتطبيقا لهذا المبدأ نشطت الأحزاب والجمعيات ، في تأسيس المدارس العربية الحرة في المدن والقرى أيام الاحتلال ، لتعليم أبناء الشعب اللغة العربية وبعض علومها لمواجهة سياسة الفرنسة والإدماج ،وكانت جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في بناء المدارس ونشر التعليم العربي الحر ،والدفاع عن عروبة الجزائر ،من أهم الجهود الوطنية أثرا وأكثرها فاعلية .

الموضوع : أهمية اللغة في تحديد الشخصية الوطنية

"بسم الله الرحمن الرحيم

أيّها الأخوة الكرام، حيّاكم الله وبياكم وأدامكم، وأحياكم وأبقاكم للعروبة تصونون عرضها، وتستردون قرضها، وللغة العرب تجمعون شتاتها وتحيون مواتها، وترعون على تجهم الأحداث، وسفه الحوادث منابتها، ولهذا المؤتمر تعلون بنيانه، وترفعون على العمل النافع أركانه.

أيها الحضور الكريم أنا سعيد جدا بوجودي في بيروت أرض العروبة ومنبت العربية ،من منا لا يذكر الجهود الجبارة التي بذلها اللبنانيون في مطلع العصر الحديث ، لإحياء اللغة العربية وتطويرها ، وجعلها تواكب ركب الحضارة الحديثة ،من منا لا يذكر خهود اليازجيين والمارونيين وفارس الشدياق وأسرة القباني ، والريحاني وخليل مطران و غيرهم من الرواد الذين كرسوا حيوا تهم لخدمة هذه اللغة ،بمقالاتهم وكتبهم ومحاضراتهم ، إلى جانب إخوانهم العرب في أقطار العروبة المتباعدة .

وأغتنم الفرصة لأحي وأشكر و أتقدم بالثناء العطر للذين قاموا بهذه المبادرة المباركة ، وعلى رأسهم فخامة رئيس الجمهورية :- ميشال سليمان- الذي تبنى الفكرة وباركها وشجع عليها ، وقدم لها كل ما يمكن تقديمه من دعم ومساندة لإنجاحها ، وكذا جنود الخفاء الذين يبذلون جهودا جبارة في التنظيم والتسيير دون أن يظهروا على منصة المؤتمر .

أيها الحضور الكريم ، ما أشبهه الليلة بالبارحة ، ففي الستينيات من القرن الماضي وقف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي –رحمه الله – مخاطبا إخوانه أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة قائلا :

"أيها الإخوة: إنّ هذه اللغة العربية الشريفة التي طرقنا خيالها المؤوب، ثمّ أسمعنا داعيها المثوب، فاجتمعنا على بساطها اليوم من جميع أقطار العروبة ،هي الرحم الواصلة بيننا، وهي اللحمة الجامعة لخصائصنا وآدابنا، فمن بعض حقها علينا أن نبلها ببلائها، وأن نرعى حقّها في كلّ منسوب إليها. كما أن من بعض حقها علينا أن نخف لنجدتها، كلّما مسّها ضرّ أو حزّ بها أمر، وأن ما كنتم فيه من اليوم، من هذا الاستقبال المتهلل، واللقاء المرحب المهلل، بإخوانكم فيه جميل من البر بالعربية في أبنائها، يرضي الذي اصطفاها ترجماناً لوصيّه ، ويرضى محمّداً الذي أدى بها أمانته ، وبلّغ بها رسالته إلى خلق الله، ويرضى يعرباً ونزاراً، اللذين سكباً بها التغاريد العذبة، الجميلة في آذان الأجيال، ترتلها كلمة باقية في الأعقاب، ويرضي أسلافكم الذين ساسوا بها العقول، وصقلوا بها الأذهان والقرائح، وراضوا على بيانها الألسنة، ودونوا بها العلم والحكمة، وخطوا بها التاريخ، وشادوا بها الحضارة الشّمّاء التي لا تطاول، ووسعوا بها آفاق الخيال العربي، ورققوا ببيانها العواطف الكثيفة، وحدوا بها ركب الإنسانية حينا فأطربوا".1

ثم واصل قائلا :

أيها الأخوة، إن مواطن العروبة متفرقة متباعدة، وإن الرابط الطبيعي بينها هو هذه اللغة. وقد ألمّ بها أحداث الدهر، ما أضعف تلك الرابطة، حتى رثت حبالها، وغالبتها العامية في كثير من أحكامها، وكثير من مفرداتها، ولكنها لم تبتل بداء مثل هذا الداء العقام، الذي نسميه الاستعمار، فهو الذي ألح عليها عن قصد، وتعمّد حتى كاد أن يزهق روحها ،لإيقانه بمبلغ تأثيرها في تثبيت الروابط بيننا، ومن بلاء العربية أن هذا الداء تسلّط على جميع أقطار العروبة، فتمكن من حرب العربية في جميعها، بوسائل شيطانية لولا عناية الله، وما أودعه فيها من القوّة والمناعة، لقضى عليها .ولقد حاربنا على أرضنا وأقواتنا، وكلّ وسائل الحياة عندنا فأفلح ،ولكنّه حينما حارب لغتنا، وتدسّس إلى مدبّ السرائر، ومكامن العقائد من نفوسنا، باء بالهزيمة فلا حيف بعد اليوم، وقد تنبّه ربّ البيت، فخاف اللّص، وباء بالفشل والخيبة، وأبرز الأمثلة لحرب الاستعمار للعربية، منعه لتعليمها في الجزائر،

وحكمه بأنّها لغة أجنبية في بلدها، ومنعه للكتب العربية التي تطبع في المشرق العربي من الدخول إلى الجزائر. ما ذلك إلاّ لغاية واحدة هي إضعافها، ثمّ الإجهاز عليها ،وما جرى في الجزائر، جرى في غيرها من أقطار العروبة على اختلاف في الشكل ،والاستعمار كلّه ملة واحدة. "2

كانت هذه فقرة من خطبة طويلة ألقاها الإبراهيمي، أمام أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، في الستينيات من القرن الماضي ، والخطبة بكاملها تصلح لأن تكون ورقة عمل في هذا المؤتمر .

فلنعمل للغتنا بأنفسنا، ولنسكب عليها عصارة أرواحنا، ولنضاعف جهودنا، ولنشدّ حيازيمنا، ولنشحذ عزائمنا، ولنوجه كلّ قوانا لخدمتها والذب عن حرماتها.

ولنعلم أنّه إن أصابها سوء ونحن عصبة، إذا لخاسرون، ولسنا لعدنان ولا لقحطان إن سيمت العربية ضيماً، ونحن حماة ثغورها.

أيها الأخوة، إن اللغة العربية كالدين، يحملها من كلّ خلف عدوله، لينقوا عنها تحريف المغالين، وزيغ المبطلين، وانتحال المؤولين، و نحن أولئك العدول فانفوا بجدّ وإخلاص عن هذه اللغة زيغ المبطلين من هذا الجيل، الذين أصبحوا يتنكرون لهذه اللغة، ولا يغفرون في وجهها، وقد فاتهم أن يحصلوا منها على طائل، فأصبحوا يرمونها بالعقم والجمود، وعدم المسايرة لركب الحضارة، ويتمردون على البيان العربي، وعلى مناحي الشعر العربي وعروضه وقافيته ورويه، ويلوون ألسنتهم بالسوء في ذلك كلّه.

يفرض الواجب علينا القيام بعملية توسيع اللغة العربية، بإدخال المصطلحات العلمية والحضارية، ولكن بطريقة علمية تعتمد النحت والقياس والاشتقاق فلا تدخل اللفظة إلى اللسان العربي، إلا إذا تزيّت بالزّي العربي، وانسجمت مع قواعد اللغة العربية .

لأن في هذه اللغة من المزايا التي يعز نظيرها في اللغات الأخرى ، الاتساع في التعبير عن الوجدانيات، والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلها..."(3)، واللغة العربية هي التي أفضلت على علماء الإسلام بكنوزها ودقائقها وأسرارها وأمدتهم بتلك الثروة الهائلة من المصطلحات العلمية والفنية

، التي تعجز أيّة لغة من لغات العالم ،عن إحضارها بدون استعانة واستعارة، فبحثوا في كل علم وبحثوا في كل فن وملئوا الدنيا مؤلفات ودواوين، ومن عرف كتاب أبي حنيفة الدينوري في النبات ،وكتاب أبي عبيدة في الخيل، وكتاب الهمذاني في تخطيط جزيرة العرب، وكتاب الجاحظ في الحيوان ، وكتب الأئمة في الطب والنجوم والإبل ، رأى العجب العجاب من اتساع هذه اللغة وغزارة مادتها ، و علم مقدار أفضالها على الأمة العربية، كما أنه من يقرأ شعر النفسانيين من الفرس بهذه اللغة ،وشعر الشعراء الوصافين من الأندلس، يتجلى له أيّ إفضال أفضلته العربية ،على تلك القرائح الوفادة التي وجدت في العربية فيضا لا ينقطع مدده، وأضافته إلى فيض الاستعداد . وفي ذلك وعي عميق بالأبعاد الحضارية للغة ووظيفتها في تطور الأمم والمجتمعات ،ذلك لأن لغة العرب، قطعة من وجود العرب، وميزة من مميّزات العرب، ومرآة لعصورهم الطافحة بالمجد والعلم والبطولة والسيادة..

اللغة والشخصية الوطنية:

ليست اللغة ألفاظا وكلمات فحسب ،وإنما هي آداب وتقاليد وعادات وطرق تفكير وأنماط سلوك، و ليس من الغرابة في شيء أن نؤمن—كما آمن الفيلسوف الألماني (فخته)(*) قبلنا – بقدرة اللغة على رفع معنويات الأمة، وإعادة وحدتها وتوطيد أركانها، فقد عدّ (فخته) اللغة عاملا ضروريا لاستقلال ألمانيا وإعادة وحدتها[1]، وعدّ الإبراهيمي اللغة عنصرا هاما في تحقيق السيادة الوطنية والقومية إذ يقول: –في معرض حديثه عن اللغة الأوردية بباكستان– "..وأنا أستحسن أن تكون اللغة الأوردية هي اللغة الرسمية... تقريرا للسيادة القومية وللاستقلال، إذ ما دامت اللغة الانجليزية هل لغة الدواوين والتعليم والاقتصاد، فإن الاستقلال ناقص على أهون الاعتبارات إن لم نقل إنه صوري..."[2]، ويقول في موضع آخر: "...إن هذه الأمة (الشعب) تعتقد —وتموت على اعتقادها– أن لغتها جزء من كيانها السياسي والديني وشرط في بقائها[3]، ثم يقول: "...لغة الأمة هي ترجمان أفكارها وخزانة أسرارها، فإذا حافظ الزنجي على رطانته ولم يبغ بها بديلا، وحافظ الصيني على زمزمته

*)– فخته أو فشته (1762–1814)، جمعت محاضراته عن اللغة الألمانية وأهميتها في توحيد صفوف الأمة والتي كانت قد ألقاها سنة 1808م بجامعة برلين أثناء احتلال نابليون لأجزاء من ألمانيا —في كتاب تحت عنوان (خطاب إلى الأمة الألمانية).

1)– مولود قاسم نايت بلقاسم، إنية وأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر مطبعة البعث بقسنطينة ط1، عام 1975، ص29.

2)– آثار الإبراهيمي، عيون البصائر، ج4، ص32.

3)– نفسه، ص313.

فلم يرض عنها تحويلا، فالعربي أولى بذلك وأحق، لأنّ لغته تجمع من خصائص البيان ما لا يوجد جزء منه في لغة الزنج أو لغة الصين ولأنّ لغته كانت —في وقت ما– لسان معارف البشر، وكانت — في زمن ما– ترجمان حضاراتهم وكانت —في وقت ما– ناقلة فلسفات الشرق وفنونه إلى الغرب، وكانت في وقت ما –هادية العقل الغربي، الضال إلى موارد الحكمة في الشرق وكانت –في جميع الأوقات– مستودع آداب الشرق، وملتقى تياراته الفكرية، وما زالت صالحة لذلك لولا غبار من الإهمال علاها، وعاق من الأبناء قلاها وضيم من لغات الأقوياء المفروضة دخل عليها، وهي قبلَ وبعدَ كلّ شيء حاضنة الإسلام، ودليله إلى العقول، ورائده إلى الأفكار، دخلت به إلى الهند والصين، وقطعت به البحار والفلوات وفيها من عناصر البقاء ومؤهلات الخلود ما يرشحها للسيطرة والتمكن، فقد احتوتها الرطانات من كل جانب ودخلت عليها دخائل العجمة واللكنة، فما نال كل ذلك منها نيلا، وإن لغة يصيبها أقل مما أصاب اللغة العربية من عقوق أبنائها وحرب أعدائها، لحقيقة بالاندثار والفناء، ولكنها لغة العرب..."[4].

لا شكّ أن لغة الأمة هي رمز رقيها وهي عنوان حضارتها، بل الدليل على وجودها أمة حية بين الأمم الحية، وإن مصير كل أمة مرهون بمصير لغتها القومية قوة وضعفا، رقيا وانحطاطا، حياة وموتا، يقول الرافعي في هذا الشأن: "...وأما اللغة فهي صورة وجود الأمة بأفكارها ومعانيها، وحقائق نفوسها..."[5].

ويقول علماء التربية: "...إن اللغة هي التي تكون الناس أكثر مما يكوّنها الناس ، وتصنع العقول والأفكار أكثر مما تصنعها العقول والأفكار..."[6] لأنّ الأفراد زائلون دائما بحكم طبيعتهم البشرية، أمّا الثقافة إذا ضاعت فسيترتب عليها ضياع الجماعة نفسها[7]، واللغة وعاء لحفظ الثقافة ووسيلة التعبير عنها، والعربة التي تنقلها عبر الأجيال، وكما لا يمكن وجود ثقافة بدون لغة، لا توجد لغة بدون ثقافة، ولا يوجد الاثنان بدون مجتمع بشري، يقول الإبراهيمي: "...فاللغة من الحضارة جزء لا كالأجزاء كاللسان من البدن عضو لا كالأعضاء ، ويقول أيضا: "...إن العربية لم تخدم مدنية خاصة

---

[4])– آثار الإبراهيمي، عيون البصائر، ص310 وما بعدها.

[5])– مصطفى صادق الرافعي وحي القلم، ج3، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، ص32–33.

[6])– د. تركي رابح، دراسات في التربية الإسلامية والشخصية الوطنية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1982م، ص108.

[7])– المرجع السابق، ص98.

بأمة، وإنما خدمت المدنية الإنسانية العامة، مدنية الخير العام والنفع العام، ولم تخدم علما خاصا بأمة، وإنما خدمت العلم المشاع بين البشر بجميع فروعه النافعة، ومن يستقرئ خاصة –هذه اللغة، لعلم الطب وحده يتبيّن مقدار ما أفاءت به هذه اللغة على البشرية من خير ونفع. وقد كانت هذه اللغة في القرون الوسطى، يوم كان العالم كله يتخبط في ظلمات الجهل، هي اللغة الوحيدة التي احتضنت العلم، وآوته ونصرته. أيها الإخوان هذا أفضل لغتكم على المدنية الإنسانية وفضلها على الأمم غير العربية، وأما فضلها على (الأمم العربية)(*) فإنّه يزيد قدرا وقيمة على فضلها على الأمم الأخرى وإذا قلنا: الأمم العربية فإننا نعني الأمم الإسلامية كلها، لأنها أصبحت عربية بحكم الإسلام ولغة الإسلام..."[8]، فاللغة العبرية التي زالت من التداول منذ أكثر من عشرين قرنا، بقيت محفوظة بفضل علاقتها بأسفار التوراة وهو الأمر الّذي جعل اليهود يحافظون عليها حيثما ارتحلوا في أقطار العالم، إلى أن اغتصبوا أرض فلسطين، وكوّنوا وطنا قوميا لهم في القرن الماضي فوجدوا وسيلة الاتصال قائمة بينهم –على ضعفها– وعملوا على تقويتها وإثرائها لتساير روح العصر وتصبح إحدى دعائم القومية اليهودية، ولو لم تكن لغة الدين اليهودي، لزالت من الوجود إلى الأبد. والأمر نفسه يمكن أن يقال عن اللغة العربية في الجزائر، وفي التاريخ الحديث ظهر العديد من الحركات السياسية في البلد الواحد، بسبب الاختلاف اللغوي السائد بين المقاطعات، حيث يجد المطالبون بالانفصال، في الاختلاف اللغوي، مبررا قويا لإقامة دويلات ذات كيان مستقل بخصائصه القومية مثلما يحدث في كندا وإسبانيا وبلجيكا وغيرها من الدول. وأن الفرد إذا لم يعتقد بأن لغته قادرة على مواكبة الحياة فإن ارتباطه بأمته وإيمانه باستحقاقها للحياة لابدّ أن يعتريه الوهن، وبذلك يصبح انتماؤه لأمّته واهيًا يُمكّن أعداء هذه الأمة من زعزعته، الأمر الّذي يزيد في تمزيق وحدتها، ففي هذا المجال يقول الإبراهيمي عن الّذين تنكروا للغتهم وعروبتهم: "...إن العروبة جذم بشري من أرسخها عرقا، وأطيبها غذقا، عرفه التاريخ باديا وحاضرا، وعرف فيه الحكمة والنبوة، وعرفته الفطرة لأول عهودها فتبنته صغيرا وحالفته كبيرا، وإن العربية هي لسان العروبة الناطق بأمجادها، الناشر لمفاخرها وحكمها، فكل مدع للعروبة فشاهده لسانه، وكل معتز بالعروبة فهو ذليل، إلا أن تمده هذه المضغة اللينة بالنصر والتأييد، فلينظر أدعياء العروبة الّذين لا يديرون ألسنتهم على بيانها، ولا يديرون أفكارهم على حكمتها، في أية منزلة يضعون

*)– يقص الشعوب العربية.

8)– آثار الإبراهيمي، ج1، ص262، 163.

أنفسهم؟ "[9]، فاللغة –هنا– رمز للنضال، والانتماء القومي والحضاري ، فضلا عن حركة تطورها لمسايرة العصر، وهي ذلك التيار الّذي يبعث الروح في جميع أركان الكيان الوطني، وذلك الاسمنت الّذي يضمن وحدة البنيان القومي، والّذي بدون تلاحمه لا يمكن أن يكون أي كيان لأمة من الأمم، وذلك يهدف إلى تغيير الواقع الداخلي للأفراد، بحيث تصبح طاقات الفرد الروحية مسخرة لبناء نفسه وبناء وطنه، والكاتب عندما يعمد إلى تبيان عظمة اللغة العربية وقدرتها على استيعاب العلوم القديمة والحديثة، لسعتها وشمولها، فهو يريد بذلك أن يرد على الّذين ينتقصون من قيمتها ويرمونها بضيق العطن والقصور، وهم من أبناء العرب العاقين، الّذين يشايعون – لجهلهم، وفسولة أخلاقهم وانحراف أمزجتهم العربية –، أعداءها على ذمها والزراية بها والتقليل من خطرها، حيث يقول الإبراهيمي: "...لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق، غنية بالمفردات والتراكيب –لما استطاع أسلافنا أن ينقلوا إليها علوم اليونان– وآداب فارس والهند ولا لزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم بتعلم تلك اللغات ولو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغة يونانية ولو وقع ذلك لتغيّر مجرى التاريخ الإسلامي برمته، لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية، لما وسعت علوم العالم، وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون، قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعية وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرياضيات بجميع أصنافها، والطب والهندسة والآداب والاجتماع، وهذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة والحاضرة، وهذا هو التراث العقلي المشاع الّذي لا يزال يأخذه الأخير عن الأول، وهذا هو الجزء الضّروري في الحياة الّذي إما أن تنقله إليك فيكون قوة فيك أو أن تنتقل إليه في لغة غيرك فتكون قوة لغيرك، وقد تفطن أسلافنا لهذه الدقيقة فنقلوا العلم ولم ينتقلوا إليه، وقد قامت لغتهم بحفظ هذا الجزء الضّروري من الضياع، بانتشاله من أيدي الغوائل، ونقله إلى الأواخر عن الأوائل، وبذلك طوقت العالم منّة لا يقوم لها الشكر ، ولولا العربية لضاع على العالم خير كثير... إن كثيرا من العلوم التي بنيت عليها الحضارة الغربية لم تصلها إلا عن طريق اللغة العربية بإجماع الباحثين منا ومنهم وأن المنصفين منهم ليعترفون للغة العربية بهذا الفضل على العلم والمدنية ويوفونها حقها من التمجيد والاحترام، ويعترفون لعلماء الإسلام بأنهم أساتذتهم في هذه العلوم، عنهم أخذوها وعن لغتهم ترجموها، وأنهم يحمدون للدهر أن هيّأ لهم مجاورة المسلمين بالأندلس، وصقلية وشمال إفريقية، وثغور

[9]– آثار الإبراهيمي، عيون البصائر، ص35، 36.

الشام حتى أخذوا عنهم ما أخذوا، واقتبسوا عنهم ما اقتبسوا، ولا يزال هؤلاء المنصفون يذكرون فضل معاهد الأندلس العربية، ومعاهد شمال إفريقية، ومعاهد الشام على الحضارة القائمة، ولا يزالون يردون كل شيء إلى أصله ويعترفون لكل فاضل بفضله..."[10]، بيد أن العربية لم تكن مجرد ناقل لتلك العلوم التي أخذتها عن الشعوب والأمم التي خالطتها، وإنما عملت على تطويرها، وصبغتها بالطابع العربي الإسلامي، فكان ذلك مُعينا لها، على إنشاء حضارة عالمية، أفاءت بظلها على شعوب آسية وإفريقية وجزء من أوربة، قرونا تعد من أنصع فترات التاريخ في عمر البشرية قاطبة. وفي هذا الشأن يقول الشيخ محمد الخضر حسين: "...تتلقى (اللغة العربية) ما يرد عليها من الألسنة الأخرى وتقبله بقبول حسن بعد تنقيحه وسبكه في قالب عربي..."[11].

ولعل اللغة العربية في هذا الميدان، هي اللغة الوحيدة التي تتميز بالمرونة والمطاوعة والاستيعاب، يقول الإبراهيمي: ...وليس لأحد ما لهم (العرب)، في وصف النبات والشجر، وتحليل مكاسرها ، وتحقيق طعومها، وخصائصها، وتقسيم أنواعها وتسمية أفرادها... ولإمام هذا النوع أبي حنيفة الدينوري كتاب النبات، وهو البحر الّذي لا ساحل له، وهو مفخرة اللغة العربية بلا منازع، ...وأن هذه الكتب الخاصة بالنبات والشجر، لبرهان مستقل قائم على مقدار اتساع هذه اللغة الشريفة وإحاطتها، ودليل من جهة أخرى على فضلها على المعارف البشرية، وجواب مسكت للّذين يهرفون بتنقص هذه اللغة ويرمونها بضيق العطن والقصور عن استيفاء المعارف وتوبيخ مرٌّ لزعنفة من أبناء العرب العاقين الّذين يلوون ألسنتهم بمثل هذا الكلام ويشايعون لجهلهم وفسولة أخلاقهم وانحراف أمزجتهم العربية، أعداءها على ذمها والزراية بها، والتقليل من خطرها، وأنا لا أرى دواء لهذه الزعنفة التي ضلت عن جهل، إلا الاحتقار. فما بفقدهم ينقص عديد العرب، ولا برطانتهم يقل شأن العربية ويخف وزنها...[12]، لم يكن الإبراهيمي يرضى أن تمس اللغة العربية في خاصية من خصائصها، أو أن يهان أدبها، وكان هدفه إلى جانب ذلك كله، أن تأخذ اللغة العربية مكانتها اللائقة بها، في نفوس أبنائها، العرب "[13].

---

[10])- آثار الإبراهيمي، ج1، ص260-261.

[11])- محمد الخضر حسين، دراسات في العربية وتاريخها، المكتب الإسلامي، دمشق ومكتبة دار الفتح، دمشق، ص157.

[12])- آثار الإبراهيمي، ج1، ص268.

[13])- آثار الإبراهيمي، ج1، ص75، 76.

وكادت اللغة العربية أن تختفي من الوجود في الجزائر أيام الاستعمار الفرنسي ،لولا أنّها لغة الإسلام! واشتد الصراع بين الجزائريين والاستعمار الفرنسي الذي أراد أن يصادر هويّة الشعب، ويجتثّ أصوله، من خلال مصادرة لغته بيد أن الشعب الجزائري أصر على أن يحافظ على هويّته، وأن يبقي على أصوله أو يموت دون ذلك.

أخذت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على عاتقها الدفاع عن الشخصية العربية الإسلامية للجزائر، عن طريق نشر التعليم العربي الحر ، موازيا للتعليم الرسمي المتفرنس ، فكان التعليم العربي الحرّ من أهمّ الأسلحة التي اعتمد عليها الشعب الجزائري، في كفاحه الطويل ضدّ الاحتلال الأجنبي للبلاد. ولما كانت للغة القومية خطورتها في توحيد الشعوب، وحياة الأمم فإنّ تلك الخطورة تزداد أهميّة ،إذا اقترنت اللغة الوطنية بالتعليم القومي، حيث تجد الشعوب المقهورة في ذلك وسيلة ناجعة، لحفظ تراثها وعاداتها وتقاليدها ،وبثّ الوعي بين صفوف أبنائها، فضلاً على توحيد أفكارهم ومشاربهم وأهدافهم، لينهضوا بوطنهم، فيستردوا كرامتهم واستقلالهم.

وفي ختام هذه الكلمة أوجه نداء إلى السادة : وزراء التعليم في البلدان العربية ، ناشدا إياهم إلى بذل الجهود لتوحيد مناهج اللغة العربية وجعلها مادة أساسية في العملية التعليمية تبدأ مع الطالب من السنة الأولى وتستمر معه في جميع المراحل إلى أن يتخرج من الجامعة .

كذلك العمل على إحداث حصص تطبيقية عملية :(الحث على الإبداع الأدبي في كل الأجناس الأدبية ، التدريب على الخطابة وقراءة الشعر والتمثيل وما إلى ذلك) ابتداء من السنة الثالثة أ و الرابعة ابتدائي إلى نهاية الدراسة العليا .

العمل على إدخال اللغة العربية في كل أوجه الحياة الاجتماعية والإدارية والعلمية ،لأن اللغة كالكائن الحي إذا تركت وأهملت تموت .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المراجع

آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي : ج1،ج2، ج4 ، عيون البصائر

مولود قاسم نايت بلقاسم ، انية وأصالة

تركي رابح ،دراسات في التربية الإسلامية والشخصية الوطنية

مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ج16 عام 1963